جهود الأفراد
فى ميدان الإصلاح الاجتماعى

قرأت فى الشهر الماضى، بحثا للكاتبة الأمريكية "دورتى كانفيلد" نشرته مجلة " نداء الطفل" الأمريكية . وكان البحث يدور حول إيواء الأطفال اللاجئين ، الذين حرموا من بيت يأويهم ، أو عائل يرعى شؤونهم ، نتيجة للحوادث القاسية ، والمحن المدمرة ، التى يجتازها العالم فى هذه الحرب الوحشية .

وللكاتبة شهرة واسعة فى العناية بمسائل الطفولة ، وقد ذاع صيتها فى هذا المضمار ، فى الحرب الماضية فى فرنسا . حيث كرست جهودها، لإنشاء دار تؤوى الأطفال، الذين فقدوا الأهل والعائل، فى ميادين القتال، وأصبحوا مشردين فى زحمة الكوارث والخطوب .

ولم تتوقف تلك السيدة الكريمة ، من مواصلة جهادها النبيل ، فى سبيل الأخذ بناصر هؤلاء الأبرياء، من الأطفال والمساكين ، فلم يمنعها كبر سنها، عن أداء رسالتها السامية ، بل شعرت أن تقدمها فى السن ، قد حتم عليها أن تشترك بنفسها ، فى بث دعوتها للأخذ بناصر الصغار ، وحمايتهم من شر ما يتعرضون له من التشرد والبؤس ، وما يستتبعه حتما من نتائج خطيرة .

وتقوم هذه السيدة الآن بمهمتها، بعد أن فقدت قوة الشباب وحيويته، بنفس الإيمان الذى كان يتدفق فيها وهى فى بداية دعوتها، حينما كانت فى الخامسة والعشرين من عمرها . وهى هنا قد أضافت إلى إيمانها، وعاطفة الخير فيها، تجاريب الأيام، واكتناه أسرار المجتمع وخصوصا الطبقة الفقيرة منه .

وها هى ذى اليوم تسخر قلمها، وتنفق إيرادها فى هذا السبيل، داعية إلى الأخذ بناصر أولئك البؤساء، مساعدة إياهم بمالها، مقيلة لهم من عثارهم . فلله ما أروع ما تقوم به هذه السيدة الفاضلة، وكم من أمة تتمنى، لو كان بين سيداتها، من هن فى مثل وطنيتها وجهادها.

* * *

ويقينى، أن علاج الطفولة المشردة، هو أول ما يجب أن تتجه إليه عناية الأمم، التى تروم النهوض والرفعة . ولقد تنبه الكتاب والمفكرون ، إلى هذه الحقيقة الصارخة ، خصوصا بجانب كبير من عنايتهم . فنحن نرى الشاعر الفرنسى الكبير "فيكتور هيجو" يلفت الأنظار،

إلى ضرورة العناية بالأطفال المشردين ، فى كتابه الخالد "البؤساء" الذى خلد فيه صورة الطفل المشرد "جافروش" الشهيرة والذى جعل منه رمزا للأطفال المشردين .

وكذلك ساهم بقلمه ، فى سبيل الطفولة المعذبة " تشالس ديكنز" الكاتب الانجليزى العظيم ، والكاتبة الأمريكية "هاريت ستاد" ، تلك السيدة التى أثارت حرب الشماليين والجنوبيين فى أمريكا ، فى سبيل الطفولة المعذبة من الجنس الأسود ، بكتابتها النارية . وكذلك "مكسيم جوركى" الكاتب الروسى الشهير .

ومن أظهر الأعمال الخيرية ، التى دعمتها أيدى الوطنيين المخلصين ، معهد الفنون الجميلة ، المرتجل الذى قام به غنى أمثل ، اسمه س . س . فلايشر . وهو من أهل مدينة فيلادلفيا ، بالولايات المتحدة . ومن الملاحظ أن أهل تلك المدينة مشهورون بالمروءة والاحسان وأخذ الفنى بناصر الضعيف وتتلخص قصة انشاء ذلك المعهد فى أن المستر "فلايشر" كان يسير ذات يوم فى شارع "بينبردج" القائم فى حى فقير بفيلادلفيا ، فأبصر بثلاثة أطفال لا تزيد سن الواحد منهم عن الاثنى عشر عاما ، يرتلون أطمارا بالية رثة ، وقد وقفوا أمام دكان حقير حيث تعرض فى واجهته لوحات رخيصة . وكان الأطفال الثلاثة يتأملون تلك الصور بدقة وانتباه ، وكان المنظر الذى أثار التفاتهم منظرا ريفيا من صنع نقاش غير خبير يمثل قطعة أرض منزرعة ، يظللها سحاب قاتم شديد السواد وقد لطخت بالألوان تلطيخا ، وخلت اللوحة من قواعد الفن ، فضلا عن خلوها من الجمال وفقدانها للروح الفنى ، ولكن الأطفال وجدوا فيها ما اجتذبهم ونبه احساسهم الكامن . وإذا بأحدهم يقول : إنها جميلة . فيجيبه الثانى يخيل إلى أننى أستطيع ولوج هذه الأرض والسير تحت سحابها القاتم أميلا على قدمى . فاستمع المحسن الكبير إليهم وخطر بباله أنه يستطيع أن ينمى فيهم هذا الاحساس الفنى ، وأن يحيى فيهم عاطفة الشعور بالفن والجمال فتقدم إليهم وعرض عليهم أن يأووا إلى دار يمارسون فيها النقش والتصوير بأنفسهم دون أن يكلفوا نفقة ما ، على أن يقدم لهم الطعام والكساء . فقبلوا عن طيب خاطر ، وبدءوا عملهم تحت اشرافه واشراف فنان تطوع لتعليم هؤلاء الأطفال ، فلم يمض شهر حتى ظهرت فيهم مواهب فنية نادرة ، ولم يلبثوا أن انضم إليهم أتراب وأشباه أتوا بالعجب العجاب فى التصوير والتلوين . وقد احترف بعضهم صناعة النحت فتفوقوا وصاروا من المبرزين فى ذلك الفن الجميل وأطلق المستر " فلايشر" على ذلك المكان اسم "جرافيك سكتش كلوب" أى نادى التخطيط والنقش وقد اضطر المستر فلايشر أن يبنى دارا أوسع وأكبر من الأولى نظرا لزيادة الإقبال على ناديه ، وكان المبنى الجديد هدفا لحصى وحجارة أبناء الحى ، مما كان يقابل من جانب المستر "فلايشر" بالتسامح ، بل كثيرا ما كان يدعو هؤلاء

المعتدين لزيارة ناديه، فكان يخرج من هذه الزيارات بأصدقاء جدد وطلاب جدد أيضا . ولم يلبث أن أقبل على ناديه أكثر أطفال الحى تقريبا ، وتخرج عنده فنانون سرعان ما كان اسمهم فى طليعة قائمة رجال الفن ورواده، حتى أنه أوفد على نفقته بعثات إلى أوربا استطاع أعضاؤها أن يحصلوا على أعظم درجة فى الفنون من جامعة روما ،وهى الجائزة التى لم يحصل عليها إلا أمثال حفار المعادن الشهيرة شارل بيشوب وغيره من أمثال ليو بولد سيفرت النقاش العظيم ، ونيتون سيرونس المصور البارع ،وآلين بولايسك وهو أحد الأطفال الثلاثة ، وقد تبغ فى رسم المناظر الطبيعية كالمنظر الذى كان معجبا به منذ خمسة عشر عاما .

وقد صار للمعهد متحف كبير يعرض فيه القديم والجديد من كل فن ، وأخذت مدن كثيرة تقلده وتفتح أبوابها للأطفال المشردين .

وقد بلغ ما أنفقه مستر فلايشر على ناديه أو معهده ما يقرب من المليون دولار أى مائتى ألف جنيه ، وقد ربح الجائزة التى خصصها مستر ادوارد بوك للوطنيين الذين قدموا عملا نافعا للوطن سنة ١٩٢٤ كما ربح ما قيمته عشرة آلاف دولار ووساما ذهبيا .

وانى لأؤكد أن المستر فلايشر لم يكن فى حاجة إلى ربح الجائزة فهو قد ظفر بأعظم جائزة عند ما انتشل من وهدة الفاقة وظلمات الجهل والفقر أطفالا برآء أصبحوا فيما بعد أعلاما على الفن الخالد ، ووقى بلاده شر مستقبلهم المظلم الخطر على المجتمع . لقد كسب عند نفسه كسبا لا يعدله كسب لأنه أخرج لبلاده رجالا نافعين .

و يقينى أن الانسان الصالح ليس هو الذى يصلح من شأن نفسه وأسرته فحسب ؛ بل هو الذى يساهم فوق ذلك بقسط وافر فى الأخذ بيد أبناء وطنه فى أية ناحية من النواحى التى تخرج عن نطاق عمله وأسرته ونشاطه العادى ، فيجب أن يكرس كل فرد فى المجتمع جزءا من وقته يخصصه للنشاط الاجتماعى العام ؛ فإنه يكفى أن تقوم الحكومة بمجهوداتها الخاص نحو اصلاح المجتمع ، فهى وان كانت متمتعة فعلا بالنفوذ و بالمال ، إلا أنها فى حاجة الى يد كل فرد من أبناء الوطن ، تشد بها عضدها كى تمضى بقدم ثابتة نحو الكمال المنشود .

ولا تزال حكومتنا تخصص من ميزانيتها ومن مجهودها الشىء الكثير فى سبيل انقاذ الطفولة المشردة ، وقد أنشئت المؤسسات الكبيرة التى تأوى هؤلاء الأطفال البؤساء ، ولكنها مازالت فى حاجة الى عون الأفراد على أداء رسالتها السامية والبلوغ بها حد الوفاء والكمال .

فنحن لو مررنا فى القاصمة ، فى ميدان المحطة مثلا وتحت قواعد تماثيل العظماء ، فاننا نرى بعض هؤلاء الأطفال يفترشون الأرض ويلتحفون السماء وقد يكون بين هؤلاء الأطفال من له شأن كبير فى نهضة الأمة لو أحسن توجيهه .

نحن فى حاجة إلى يد كل فرد فى الأمة لتعمل لنصرة المجتمع وتمسح دمعة المحتاج ، وتأوى الشريد وتطعم الجائع وتكسو العريان ، نحن فى حاجة الى المواطنين الصالحين الذين لا يقنعون بما تقدمه الحكومة من مجهود ، فالحكومة مهما فعلت فهى فى حاجة الى مساعدة الأفراد كل بما يستطيع ، وانى لواثقة أن كل فرد من أفراد الأمة ذات الماضى المجيد يستطيع أن يقدم فى كل لحظة خدمة لبنى وطنه .

وهنا نقف هنيهة لنحيى تلك الجماعات التى أخذت على عاتقها النهوض بالاصلاح الاجتماعى والدعوة إليه ، نحيى فيها أطيب وأسمى شعور ، تطمح الأمم لأن يسود قلب كل مواطن تنزع نفسه إلى الخير ، وتفزع من المناظر الأليمة التى يراها بين أفراد أمته وأبناء وطنه .

ففى أوربا نرى الفنانين ، يساهمون فى الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى عن طريق فنهم ، فهاهم المثالون ينصبون فى باريس تماثيل من صنعهم تمثل الطفولة المعذبة ، وتماثيل أخرى تمثل الأمومة المرهقة ، وغيرها تبرز معنى الجوع فى ملامح الرجل والمرأة والطفل ، وفى انجلترا تمثال رائع اسمه " تاج الحب " يمثل الأمومة والطفولة البائسة ، وفى الدانمارك أسست جماعة الفنانين مصنعا للمشروبات خصصت إيراده للانفاق على نواحى النشاط الاجتماعى فى كوبنهاجن ... وغير ذلك كثير من المؤسسات الاجتماعية التى تقوم دليلا رائعا على ما يختلج فى نفوس الأفراد والهيئات والجماعات ، من حب الخير والاصلاح ، والنزوع الى الأخذ بيد أبناء وطنهم ، والمساهمة بقسط وافر فى رفعة شأن بلادهم .

وانى لأرجو أن يسود هذا الشعور الإنسانى النبيل بين أبناء أمتنا العزيزة ، حتى نصل ببلدنا الى ما نبتغى له من مجد ورفعة فى ظل عاهل مصر العظيم ، مليكنا المحبوب فاروق الأول حفظه الله ورعاه .